قضايا الأدب والأدباء

الرئيس عبد الناصر والثقافة

●●●

حول خطاب الرئيس عبد الناصر في جامعة القاهرة ٢٥ نيسان ١٩٦٨ الذي اثار اهتماما كبيرا خاصا في أوساط المثقفين اللبنانيين ، كتب الشاعر أدونيس في جريدة « لسان الحال » مقالين افتتاحيين الاول بعنوان « الثقافة والدولة » (الاحد ٢٨ نيسان) والثاني بعنوان « لن تصلح السياسة ما لم تصلح الثقافة » (الاحد ٥ أيار) رأينا أن ننشر لقراء « الآداب » أهم المقاطع التي وردت فيهما :

كلام الرئيس عبد الناصر على المثقف العربي ودوره حدث سياسي ــ ثقافي . فها هو ، أخيرا ، قائد سياسي عربي يخرج من شبكة السياسة وحدودها الجزئية ، مشيرا الى ان « العمل السياسي وحده ... نتيجته محدودة » ، معلنا ان المثقفين هم « القوة » التي « تقدر على الاحاطة بمصلحة المجتمع ككل » ، داعيا المثقفين الى أن يمارسوا دورهم في « الارتقاء بالحياة والارتقاء بالمجتمع » .

لقد اعتاد السياسيون العرب أن يعزلوا الثقافة عن السياسة ، والمفكرين عن المشاركة في قضايا التخطيط والتنفيذ لبناء الحياة والدولة . كانوا في ذلك يطمسون الضوء الذي ينير تفكيرهم وعملهم على السواء . ومن هنا ، لم تكن الحياة العربية حياة سوية ، بل كانت مريضة ناقصة . السياسة فيها كل شيء ، والثقافة هامش ضئيل معزول . والسياسة ، دون ثقافة ، جزئية ، باهتة . تخبط ولا ترى . ترتجل ولا تخطط . وما عسى أن تكون الدولة التي تسودها مثل هذه السياسة ؟ انها لن تكون اكثر من مجموعة كراس ومصارف ونياشين .

ان كلام الرئيس عبد الناصر ، بما يحمله من سلطة الوضوح ، لا يدين السياسة العربية وحدها ، وانما هو كذلك حكم على المثقفين العرب جميعا . فمن يدرس مواقفهم من الثقافة ومعناها ، والشعب ومشكلاته ، والحرية وأبعادها ، ويدرس نظرة بعضهم الى البعض الآخر ، ومستوى تفكيرهم ومناقشاتهم ، يتجلى له أن ما نسميه النشاط الثقافي العربي انما هو صورة سوداء ، ويا للاسف ، في معظم أجزائها .

ولست أريد أن أتخذ من خطاب الرئيس عبد الناصر مناسبة لتحليل المستوى الفكري عند المثقفين العرب ومستوى الحوار فيما بينهم . فلقد كتبت في هذه الناحية أكثر من مرة . انما أريد أن أستخلص بعض المبادىء في ضوء ما يقوله عن الثقافة والمثقفين .

ولعل المبدأ الاول هو ان الحياة العربية تمر في مرحلة من التحول ، وان الطابع الوحيد الذي يمكن أن يكون السمة العامة لهذا التحول هو الثورة ، وان الثورة ليست قوة عزل أو انعزال ، بل هي قوة اشراك ومشاركة . وهذا يعني ان الثورة اما أن تكون شاملة أو لا تكون . ولكي تكون شاملة لا بد من أن يشارك فيها جميع المثقفين الثوريين في هذا المجتمع ، أيا كانت اتجاهاتهم .

والمبدأ الثاني هو انه لا يجوز أن ننظر الى الفكر من حيث انه اجتهاد ووجهة نظر . الفكر لا يخون . انه يبحث ويجتهد فيخطىء أو يصيب . الانسان ، كذلك ، من حيث هو مفكر ، لا يخون . انه يبحث ويجتهد فيخطىء أو يصيب . ان مفهوم الخيانة مرتبط بالقانون . انه مرتبط بالعمل لا بالفكر .

والمبدأ الثالث هو ان المثقفين طليعة القيادة . فليس الفكر والسياسة واحدا وحسب ، وانما لا نستطيع ، فوق ذلك ، أن نتصور سياسة عظيمة اذا لم تكن صادرة عن فكر عظيم . ان السياسة ، هي كذلك ، اما أن تكون ابداعا ثقافيا واما انها لا تكون .

هذا يعني ان السياسي الذي يعزل المفكرين أو يهملهم ، انما يشل الطاقة الابداعية الاولى في بلاده ، أي يشل بلاده . وهو في ذلك ، يقدم الدليل على انه يمارس سلطة ليس أهلا لها ، وليس في مستواها .

والمبدأ الرابع هو ان المفكر العربي ليس ملتزما بالنظام أو الحزب أو الدولة وانما هو ملتزم « بالارتقاء بالمجتمع وبالارتقاء بالحياة » . أي انه ملتزم بالحرية والثورة . هذا يعني ان كل محاولة لاخضاعه لحزب ما ، انما هي شكل من أشكال القتل : قتل الثورة نفسها وقتل الفكر في آن .

ان النظام أو الحزب هو الذي يجب أن يظل تحت هيمنة الفكر ــ أعني في مناخ من النقد المستمر ، والابداع المستمر ، والتجاوز المستمر . دون ذلك يتحول النظام أو الحزب وتتحول الدولة والسياسة الى ما يشبه المستنقع : تنغلق أبواب المستقبل ، ويتآكل المجتمع ، وتتفتت الحياة .

ــ ٢ ــ

لا أعتقد ان الرئيس عبد الناصر سيكتفي من اعادة النظر في قضايا الثورة ، ببرنامج الاصلاح السياسي . فهو يعرف أكثر من غيره ، وقد اشار الى ذلك اكثر من مرة ، ان السياسة جزء من كل . والثورة ، بطبيعتها ، كلية لا جزئية . وهي تقوم على نظرة جديدة الى الانسان والمجتمع والحياة ــ أي على ثقافة جديدة . والعمل السياسي الثوري جزء من هذا الكل الثقافي . فلا تصلح السياسة ، اذن ، ما لم تصلح الثقافة . والسياسة العاملة في معزل عن الثقافة ليست الا سقفا معلقا في الفضاء ، أو شجرة بلا جذور . لا تظلل أحدا ، وليس لها أي نتيجة مغيرة .

كيف يمكن ، مثلا ، أن تكون لنا سياسة ثورية في مجتمع لا نمانع في بقائه أسيرا لثقافته التقليدية ؟ ان السياسة الثورية هي التي تستلهم القيم الثورية وتتغذى من الفكر الثوري . وواجبنا الاول اذن هو أن نهيىء

للسياسة الثورية ، ينابيعها الثورية ـ في النظر والبحث والتقييم والعمل . بتعبير آخر ، لا سياسة ثورية الا في مجتمع ثوري . والمجتمع الثوري هو المجتمع الذي يثور أو ثار على ماضيه الذي استنفد ، ولم تعد فيه طاقة على التجدد ، ولم يعد قادرا أن يجيب عن الاسئلة التي يطرحها الحاضر والمستقبل .

هل المجتمع العربي ، من هذه الشرفة ، مجتمع ثوري ؟ يجب أن نعترف ببساطة : كلا .

الرئيس عبد الناصر يحدد العصرية بأنها « التجديد في الاصالة » . وهو هنا ، كأنه ، يحدد الثورية . وهذا تحديد نير ، صحيح . لكن صحته مرهونة بالمعنى الذي نقصده من الاصالة . لا أريد هنا أن أبحث عن هذا المعنى ، غير انني أريد أن أثير بعض الاسئلة حوله .

ما هي مثلا اصالتنا من الناحية الادبية ؟ هل هي الايمان بعصمة تراثنا الادبي ، والقيم التي حملها والطرائق التي عبر بها ؟ ان هذه الاصالة مرادفة للجمود والعقم . والغريب انها هي التي تسود البلدان العربية الاشتراكية ، مع ان الاشتراكية ليست انقلابا سياسيا أو اقتصاديا وحسب ، وانما هي قبل ذلك ، انقلاب ثقافي . ولن تصبح بلداننا هذه اشتراكية حقا الا حين يتم فيها هذا الانقلاب الثقافي .

وما هي مثلا اصالتنا الدينية ؟ هل هي التمسك المطلق بالتعاليم والكتب الدينية كما هي ؟ وكيف يمكن أن يكون المجتمع الذي يحرص على هذا التمسك المطلق ، مجتمعا ثوريا ، أو مجتمعا عصريا ؟ وتبدو المشكلة اكثر تعقيدا حين نلاحظ هذا التناقض في حياتنا العربية : السياسة الثورية متمسكة بالدين ، غير ان المتدينين عاجزون ، روحيا ، عن الاشعاع والفعل ، لان الوحي كحركة مفيرة خلاقة لم يعد فاعلا فيهم . هذا من جهة . انهم ، من جهة ثانية ، الاغلبية العددية الساحقة في المجتمعات العربية ، ولذلك يشكلون انقاضا وقيودا هائلة لا تتيح لغيرهم من الطامحين الى الثورة ، أن يفعلوا بروح الثورة .

ونحن ، على صعيد آخر ، حين ننادي بالعصرية لا يجوز أن ننسى ان المجتمعات لم تتوصل الى العصرية الا بعد أن ثارت على تاريخها وتراثها وقيمها ، وبعد أن رفضت وشكت . فكيف يمكن أن تكون حياتنا عصرية حين لا نسمح بالشك أو الرفض أو التساؤل حول تاريخنا وتراثنا وحول ما فيهما من الميت الذي يجب أن نتخلى عنه ، والحي الذي يجب أن ندرجه في الحاضر ؟

هكذا نسقط في قشرتين : قشرة الاشياء البائدة التي لم تعد تفيدنا ، لكننا مع ذلك نحافظ عليها ، وقشرة الاشياء العصرية الطالعة التي يصنعها غيرنا ونحاول أن نقلدها أو أن نستعيرها . ونبدو ، في هذا كله ، كأن طموحنا لا ينحصر في انقاذ ماضينا وحسب ، بل في احيائه ، كذلك ، ومده في الحاضر والمستقبل .

ان الماضي ، بقيمه كلها ، بدينه ودنياه ، هو الذي يجب أن نساله ، أن نتحداه . يجب أن نسأل التراث الديني ماذا يستطيع أن يفيدنا في حاضرنا ومستقبلنا ، لا أن نحافظ عليه ونقبل به كما ورثناه ونمتحن به وفي ضوئه حياتنا ومشكلاتنا . علينا أن نطالب الدين بأبعاده الاقتصادية والانسانية والسياسية ، واذا كان عاجزا ، فهذا يعني انه صار بعيدا عنا ، ومن الحق أن نبتعد ، بدورنا ، عنه .

لم تعد هناك أية مشكلة يمكن اعتبارها دينية وحسب . لقد أصبح الله نفسه مشكلة اقتصادية وجنسية وسياسية ، الى جانب كونه مشكلة روحية وغيبية . الجنة ، القيامة ، النار ، والملائكة .. هذه كلها لم يعد من الممكن أن تبحث من زوايا السماء والوحي وحسب ، وانما أصبحت كذلك تبحث من زوايا الارض والجوع والحرب .

هكذا يبدو ان هناك ما يشل ثوريتنا . انه ارتباطنا الطفولي بعصمة التراث : نعتقد انه صالح لجميع الازمنة وفي جميع الامكنة . هذا الارتباط مرضنا العقلي الاول ، وهو يتجسد في أنظمتنا ومؤسساتنا التربوية والثقافية والسياسية والاجتماعية .

ولعل في ذلك ما يفسر لنا كيف ان جميع ما قمنا به في السنوات الخمسين الاخيرة لم يكن الا تحركات على السطح واحتفالات تمجد طقس هذا الارتباط الطفولي . ولعل فيه ما يفسر عجزنا عن تحقيق أية قفزة جذرية نحو تكوين الانسان العربي الجديد ، والقيم العربية الجديدة ، ونحو استشراف المستقبل العربي .

ان الثقافة الثورية الحقيقية هي الثقافة التي تنبع من المستقبل وامكاناته . هي ، اذن ، الثقافة التي تدفع الانسان في اتجاه المستقبل . تحرره من الخضوع للماضي ، تنمي فيه القدرة على تجاوز الحاضر ، تهيئه لمعانقة المستقبل . انها توجيه الانسان نحو التفوق ، فنيا وعلميا وتكنولوجيا .

لا بد من الاعتراف ان أمام الثوري العربي مأزقا صعبا : الثورة لا تحكم ، لا تفعل دون اعتماد على الجماهير . غير ان جماهيرنا العربية ليست في مستوى الثورة . انها بعامة جماهير تسيرها الافكار والقيم اللاثورية . وحين تستسلم لها الثورة تخون نفسها . لكن حين تتخلى عنها ، تموت .

ماذا تفعل الثورة والحالة هذه ؟ ليس لها الا أن تبني الجماهير وتقودها ، فيما تفهمها وتحتضنها . خصوصا ان الثورات في التاريخ كله لم يحلم ولم يفكر بها الجمهور ، بل المثقفون . لكن الثورات في التاريخ كله لم تتحقق بقوة المثقفين بل بقوة الجماهير .

صحيح ان الضمان الاخير الذي تحدث عنه الرئيس عبد الناصر هو الشعب . لكن صحيح كذلك ان الضمان في مثل ظروفنا الراهنة ، يجيء من فوق ـ من القيادة السياسية . والرئيس عبد الناصر في كلامه على الضمان انما يعلم الحرية ، قبل أن يعلم أي شيء آخر . انه يؤكد حق الحلم والحرية والبحث والقلق ، تأكيده حق الخبز والعمل . وفي هذا بداية الثورة ...